الدلالة النفسية في سورة مريم

عقيل عكموش عبد

جامعة القادسية / كلية التربية

ملخص البحث:

يقف هذا البحث عند سورة مريم مستنطقاً آياتها المباركة لمعرفة ما فيها من دلالات نفسية يمكن أن تبوح بها كلمات الله المقدسة.

ينطلق البحث من فكرة مفادها إن السياق بوصفه ركيزة هامة من ركائز الكشف عن المعنى يمكن أن يكشف لنا بالإضافة إلى الدلالات المركزية للألفاظ في القرآن الكريم وآياته دلالات نفسية أخرى يمكن أن يراها المتأمل دون أن تتعارض مع ما وصلت إليه المدونة التفسيرية من دلالات قرآنية على الرغم من أن كثيراً منها يحتاج إلى إعادة قراءة وإنتاج.

ويصل البحث من خلال نوافذ ثلاث يفتحها على سورة مريم المباركة إلى أن السورة تفوح بدلالات نفسية وعاطفية رائعة - لا ندعي أننا وقفنا على جميعها. وهذه النوافذ هي: (١) الجو العام للسورة القرآنية بوصفها مكية. (٢) تعقب القصة القرآنية فيها. (٣) محاولة تقصي الدلالة النفسية لتكرار بعض الألفاظ والتراكيب.

وهذا يقودنا إلى أن النص القرآني بوصفه نصاً لغوياً - قبل كل شيء - لا يزال نصاً ولاداً مليئاً بكثير من الأسرار التي لا تنقضي، ولا عجب في ذلك فالقرآن (لا تنقضي عجائبه، ولو كان مقصوراً على معنى ظاهره لما تنافست العلماء بالازدياد منه، ولاستووا في الدرجات في العلم به)^(١).

البحث:

لقد تباينت وجهات نظر اللغويين في الوظيفة التي تسعى اللغة إلى تحقيقها، فذهب بعضهم إلى أن اللغة أداة عقلية فحسب؛ ذلك لأنها عندهم مجموعة من الرموز (العلامات اللغوية) التي تعبر عن المعاني التي يريد المتكلم إيصالها إلى الطرف المقابل^(٢). فتقوم اللغة - بما هي نظام تواصل - بتسمية الأشياء المتحدث عنها بواسطة الألفاظ التي يسميها دي سوسير علامات لغوية بعد العودة -

بطبيعة الحال - إلى معاني المفردات العالقة في ذهن كل من طرفي عملية التواصل اللغوي^(٣). وتبعاً لذلك يميز كثير من الدلالين بين المعنى الفكري، والمعنى العاطفي أو الانفعالي للغة^(٤).

ويبدو أن الذي قاد أتباع هذا الرأي إلى ما ذهبوا إليه هو إيمانهم بأن الكلمة بوصفها أصغر وحدة دلالية تحتوي على معانٍ ثابتةً ثبوتاً نسبياً، فالكلمات لها معانٍ ثابتة سواءً قلت هذه المعاني أو كثرت، أي إن هذه الكلمات تشير

عندهم يحيل إلى معانٍ متعددة يكون ميل المتلقي أو السامع هو المتحكم في الركون إلى أحدها، وهذا قد يؤدي إلى خلاف بين ما يريده صاحب الرسالة اللغوية، وما ركن إليه ميل السامع، وهو ما يجعل المعنى عائماً.

فالعناصر العاطفية والانفعالية إذن جزء لا يتجزأ من النظام اللغوي^(١٠)؛ ذلك لأن الإنسان لا يتكلم ليصوغ أفكاره فقط، بل ليؤثر في غيره، فاللغة اليومية مشحونة بالارتباطات العاطفية فوق ما تتضمنه من المعاني الفكرية الخالصة أصلاً، إذ (تستطيع الكلمات أن تعبر عن العواطف والانفعالات بفضل المضمون العاطفي الذي تكتسبه في بعض المواقف المعينة، وربما يكون المضمون قوياً إلى درجة يتسبب عنها اختفاء ذلك القدر من المعنى المنطقي اختفاءً تاماً)^(١١) حيث لا يسعنا المعجم، أو التوافق اللغوي للوقوف على دلالات النصوص. والواقع أنك قلما تجد لفظة مخصصة للدلالة لمعنى واحد، فلا تخلو لفظة ما من إشارة دلالية، أو حالة من الدلالة تكون مصاحبة للمعنى الأول الذي تدل عليه، وهو ما يؤدي إلى القول بنسبية الدلالة^(١٢)؛ إذ إن (الظلال الدلالية لا تغيب عن الألفاظ، وتكاد تضر بدلالاتها المركزية، وتزحزحها عن مكائنها في أذهان جماعة المتكلمين)^(١٣) حتى لتبدو كثير من الألفاظ منفصلة من قيود الدلالة الاجتماعية المستقرة^(١٤).

والحقيقة إن السياق وحده هو الذي يكشف لنا ما إذا كانت المفردة اللغوية ينبغي أن تؤخذ على أنها تحمل بعداً منطقياً ثابتاً، أو أنها قصد بها التعبير عن العواطف والانفعالات أو إثارتها. والسياق الذي يحدد لنا درجة القوة والضعف في الانفعال الذي يوصل إليه من خلال التعبير بالألفاظ والكلمات هو ما يسمى بالسياق النفسي، أو العاطفي^(١٥).

ومن هنا يمكن لنا الحديث عن دلالات نفسية يمكن أن تبوح بها النصوص اللغوية - على اختلافها - يمكن ملاحظتها عن طريق تثوير ما في النص من قرائن لا تبدو

بالفعل إلى دلالات محددة، وهذه الخصوصية هي القاعدة الملازمة لكل اتصال لغوي بحسب المفهوم العام. وهم بذلك يقتربون من مفهوم (الدلالة المركزية)، أو حسب ما يسميه أولمان بالنواة الصلبة^(٥).

ومع أننا لا ننكر أن اللفظ ربما يوحى للوهلة الأولى بمعنى، أو معانٍ محددة، إلا أن ذلك لا ينفي أن هذا اللفظ أو ذاك يمكن أن يحيل إلى تعددية هائلة في المعنى يمكن أن يحتملها على وفق السياق الذي ورد فيه من خلال تحليل مكونات الأداء اللغوي عبر سياقاته اللغوية المختلفة؛ اللفظية والاجتماعية، والثقافية، والعاطفية أو النفسية. ومن هذه المعاني ما يمكن لنا أن نسميه بالمعنى العاطفي أو الانفعالي للغة. وليس هذا بغريب (فاللغة قبل أن تكون ظاهرة اجتماعية، هي حادثة نفسية، أو حاجة نفسية، تتمثل في إفراز من إفرازات الذات يكتسب بعداً روحياً وذوقياً يتخذ طابع المثير والاستجابة، ويظل الأثر النفسي ملازماً للمفرز اللغوي إلى أن يصير معنى في عرف السامع وتحليله، ومن ثم فانه يفرض نفسه إبان التحليل الدلالي للحدث اللغوي)^(٦). وبذلك ينطلق الكلام من المستوى التصريحي إلى المستوى الإيحائي الذي يعطي لعملية التواصل الدلالي تلويناً خاصاً مستثمراً لمكونات اللغة، ومفجراً عبقريتها بإقحام العلامات اللغوية في صياغات جديدة فـ(اللغة النحوية المنظمة تنظيمياً منطقياً لا تستقل عن اللغة الانفعالية، فبين اللغتين تأثير متبادل)^(٧). ومن خلال استغلال هذا التأثير المتبادل بينهما نستطيع الوصول إلى كثير من الانزياحات عن الدلالة المركزية، موظفين ذلك الحشد النفسي والعاطفي الذي تجود به اللغة فضلاً عن استثمار بعض الجوانب اللغوية التي تسهم في إظهار المعنى العاطفي أو الانفعالي كالنبر والإيقاع والتنغيم واختيار الكلمات ونظام ترتيبها ومواقعها في الجمل^(٨).

وقد ذهب علم الدلالة السلوكي إلى أبعد من هذا^(٩)، إذ أخضع المعنى إلى عامل الميل لدى السامع، فاللفظ

على الرغم مما في هذه الآيات من نزعة تميل إلى العقل والمنطق وكيفية توظيف كل منهما في الوصول إلى مدلولاتها، حتى وصل الاختلاف والتباين إلى جزئيات المسألة الواحدة أيضاً، فإن الوقوف أمام كثير من الآيات الأكثر طواعية للتأمل والفهم - إذا جاز القول - يتيح لنا فرصة جديدة للتفكير ومساحة واسعة للقول وصولاً إلى معانٍ قد تكون جديدة أو مختلفة عما قيل سابقاً، فكثير من ألفاظ القرآن الكريم لا تنتهي دلالاته بمجرد الكلام عن ظاهر المعنى فيه لامتلاكه فضاءات واسعة للتأمل والغوص في باطنه حتى يميل القارئ معه على معانٍ نفسية وعاطفية جديدة لا تتعد عن السياقات التي ترد فيها الألفاظ، ولا تتناقض كلياً مع ما قيل في دلالة هذه الآية القرآنية أو تلك، فضلاً عن القول بأن العناصر العاطفية والانفعالية جزء لا يتجزأ من النظام اللغوي، والحدث الكلامي إذا نظر إليه على أنه وحدة متكاملة دخلت في تحليل المعنى فيه جميع عناصر الأداء اللغوي؛ لفظية كانت أو غير لفظية.

من بين كل هذه التداخلات انتفضت فكرة البحث عن الدلالة النفسية لتجد في سورة مريم فضاءً واسعاً للبحث عن مثل هذه الدلالة تسعنا فيه كثير من التفصيلات والجزئيات التي امتلأت بها السورة المباركة.

وقبل الحديث عن المنهجية التي سار عليها البحث لابد من التنويه إلى أن هناك دراستين كان موضوعهما قريباً من موضوع البحث، ولكننا سنجد أن البحث يعبد له طريقاً آخر جديداً يختلف عما سار عليه الآخرون، ويصل إلى ما لم يصلوا إليه. والدراسة الأولى رسالة ماجستير بعنوان (سورة مريم) دراسة لغوية لأنوار عزيز جليل. وهذه الرسالة لم تتكلم من قريب أو بعيد عن الدلالة النفسية التي هي موضوع هذا البحث مع أنها تناولت كثيراً من جزئيات التحليل اللغوي وصولاً إلى المعنى. والدراسة الثانية للدكتور محمد جعفر محيسن، وهي أطروحة دكتوراه بعنوان: (الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم). وعلى

للوهلة الأولى كافية للقول بمثل هذا المعنى. وربما يجدر بنا في هذا المقام أن نشير إلى أن الحديث عند مثل هذه الدلالة، وفي أي نص لغوي لا يعني أن هذا الذي توصل إليه هو المعنى وحده، فالدلالة النفسية لا تنكر في جميع الأحوال الدلالات الأخرى التي يمكن أن يحملها النص، وقد وصل إليها آخرون؛ بل لعلها يمكن أن تفيد من ذلك كله وصولاً إلى المعنى الجديد الذي تريد (فهي إنتاج نوع من الفهم، وبالتالي تقاسم أنواع من الدلالات المحددة مع قراءة آخرين)^(١٦).

وربما كان المعنى النفسي الذي نتحدث عنه يشير إلى ما يمكن أن يتضمنه اللفظ من دلالات عند القارئ للنص، وبذلك تكون الدلالة ذاتية وفردية حتى تنهض بها القرائن، ويقويها سياق النص اللغوي بجميع أشكاله لتكون دلالة جديدة تضاف إلى الدلالات الأخرى التي يشي بها أي نص لغوي، ومن هنا تأتي أهمية هذا النوع من البحث (فالدلالة النفسية تضيف إلى اللغة جانباً مهماً وفاعلاً من جوانب فاعليتها وأثرها، وتظهر من جهة أخرى مكمناً من مكامن عبقرية اللغة وحسن سياسة المعنى فيها)^(١٧).

وإذا أمكن الاطمئنان إلى ما سبق والتأسيس عليه، فإننا يمكن أن ننظر بهذه الرؤية إلى القرآن الكريم متمسكين ما يمكن أن يفضي إلى دلالة نفسية تجود بها ألفاظه وآياته، وينهض بها المقام والسياق. والحق إن القرآن الكريم - بطبيعته اللغوية - مشحون في كثير من سورته وآياته بجو العواطف والانفعالات التي تثير في النفس الإنسانية عوامل الترقب والتأمل والاستجابة، وربما وجدنا في هذا الكم الهائل من الاختلاف في المدونة التفسيرية مشجعاً في الخوض في بعض سور القرآن الكريم، متقسين ما يمكن أن نخبرنا به من دلالات وإبحاءات نفسية، وإذا كانت الآيات المتعلقة بالأحكام الفقهية، والعقائد قد أثارَت عند جمهور المتلقين على اختلاف مرجعياتهم في الفهم هذا الحجم الهائل من التعدد

القرآني بالإضافة إلى الدعوة إلى التوحيد، ونفي ما نسبه المشركون للذات الإلهية المقدسة.

والمأمل في هذه السورة المباركة يلحظ أن جوها العام يفيض بالرحمة والعطف والرجاء إلى أقصى الحدود، ولعل حديثنا في المفاصل الآتية من البحث سيفصل لنا جزئيات هذا الذي نرى. وإذا كان غرض السورة كما يرى بعض المفسرين^(١٩). ما ورد في آخرها بقوله تعالى: ((فَإِنَّمَا يَسِرَّنَا بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا))^(٢٠) يريدون التبشير والإنذار، فإننا نستطيع إن تكشف عن غرض آخر لا يقل أهمية عما ذكره المفسرون، إن لم يكن هو الغرض الأساس؛ وهو إن السورة القرآنية - بجميع مفاصلها - قد جاءت لتثبيت قلب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في دعوته قومه إلى الله سبحانه وتعالى، ودعوته إلى تحمل ما لا يطاق من أجل ذلك متبعاً سنة أسلافه من الأنبياء (عليهم السلام). والسورة بعد ذلك بما تحمله من جو رحماني يمكن أن تكون عاملاً يرجح كفة الدعوة إلى الله سبحانه، ومعادلاً موضوعياً للظلم والقسوة والجفاء الذي كانت عليه قريش.

لقد بدأت السورة المباركة بالحديث عن الرحمة التي غمرت زكريا (عليه السلام)؛ ((ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَّا))^(٢١)، وهي السورة القرآنية الوحيدة التي تبدأ بالحديث عن الرحمة التي ينعم الله سبحانه وتعالى بها على عباده، ثم تتابع الأجزاء المكونة للسورة مروراً بمريم، وإبراهيم، وموسى، وإسماعيل، وإدريس (عليهم السلام)، مفصلة الأنعام المتواليّة التي أغدق الله سبحانه بها على خُلص عبده، وكيف أنه ناصرهم في نهاية المطاف، ثم نجد في ختام السورة رحمة أخرى وَعِدَ بها عباد الله المتقون. قال تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا))^(٢٢)، وهكذا تنقلت السورة بين رحمة من الله قد خلت أفاض بها على السابقين من أوليائه، ورحمة ستأتي هي من نصيب النبي (ص) وأتباعه. ولا يخفى أن

الرغم من أن الباحث كان موفقاً كثيراً على مستوى التمهيد والتنظير لهذا المعنى إلا إن المنهج الذي اختطه لنفسه - وهو البحث عن الدلالة النفسية للألفاظ القرآنية وفق نظرية المجال الدلالي قد ألجأه إلى النظر إلى كل مفردة قرآنية على حدة بعيدة عن فضاءاتها العامة التي ترد فيها، فضلاً عن فضاء السورة أو القصة القرآنية، فقد قَسَمَ الألفاظ التي توقع فيها دلالة نفسية، أو أجبرها على ذلك إلى حقول دلالية متنوعة، ثم راح يبحث عما يمكن أن تجود به هذه الألفاظ من معانٍ جديدة مبتعدة عن دلالتها المركزية، وربما كان توزع جهده على القرآن الكريم عامة قد سرق منه أهمية الوقوف مع ألفاظ سورة مريم وآياتها ودلالاتها كلياً لمعرفة ما تزخر به من معانٍ عاطفية، وانفعالات نفسية رائعة ربما لا يمكن تفسير كثير من المواقف إلا من خلالها، عندما لا تسعنا المعجمات أو الرواية أو أسباب النزول وغيرها من مرجعيات البحث عن الدلالة والمعنى.

سار البحث على وفق منهجية وصفية تحليلية حاولت استنطاق ألفاظ السورة المباركة وآياتها وقصصها، ثم استنطاق السورة بأكملها للبحث عما فيها من دلالات نفسية.. وتبعاً لذلك فقد كان البحث ينطلق في البحث عن الدلالة النفسية في السورة المباركة من زوايا ثلاث؛ الأولى: زاوية النظر إلى الجو العام في السورة، وغرضها، وموقع نزولها. والثانية: زاوية البحث في القصة القرآنية التي حوتها السورة وما فيها من مداخلات نفسية، والثالثة: زاوية البحث عن أسرار تكرار بعض الألفاظ في السورة وما يمكن أن يفسر به هذا التكرار نفسياً وعاطفياً.

أولاً: الجو العام للسورة:

سورة "مريم" من السور المكية، وهي السورة التاسعة عشرة في ترتيب السور القرآنية، وقد توسطت سورتي "الكهف" و"طه" وتمثل مع مجموعة أخرى من السور القرآنية المرحلة الثالثة من السور المكية^(١٨)؛ وهي المرحلة التي تتسم بالطول نسبياً وبالحديث عن القصص

ولعل المتأمل لا يستطيع أن يعدو هذا التكرار الواضح في الربط بين تحقق النصر وانجاز الوعد ونزول النعمة الإلهية، وبين الاعتزال أياً كان مظهره، وإذا تجاوزنا أن في هذا الاعتزال أياً كان مظهره، تجرد عن الأغيار، واتجاه لله سبحانه بإخلاص لا يشوبه تعلق بأمر ما، وكل هذا من شأنه أن يخلق جواً نفسياً خاصاً يمكن أن يعيشه العبد مع ربه - نستطيع أن نفسر هذا بأحد أمرين يحتملهما السياق؛ الأول: يمكن تفسير العزلة التي كان الرسول الأعظم (ص) يحيط بها نفسه قبل تكليفه بالنبوة، وما لها من أثر في تحقق النصر الإلهي، والبشارة بالنبوة، والثاني: ولعله الأقرب إلى المقام هو إن الأمر الذي كلف به رسول الله بدعوة قومه في مكة لن يتحقق؛ أي لن يكون للدين الجديد من شوكة إلا بعد أن يمر الرسول بما مر به غيره من الأنبياء (عليهم السلام)، ولعل كل ذلك كان تمهيداً نفسياً للهجرة التي سيؤمر بها النبي إلى المدينة المنورة فيما بعد. وبذلك فقد أحييت السورة المباركة في نفس النبي روح الأمل بان النصر سيأتي، والوعد سيتحقق، كما تحققت المعجزات السابقة لغيره من أنبياء الله، وهيات في الوقت نفسه صاحب الرسالة ومن تبعه نفسياً إلى اعتزال، أو هجرة محتملة تكون فاتحة للنصر. ولعل كل ذلك قد توجّه قوله تعالى في نهاية السورة: ((إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا))^(٢٥). إذا قبلنا أي الوجهين اللذين قال بهما أصحاب التفسير^(٢٦)، بأن يكون ذلك الود في الدنيا بما سيتحقق لهم من مودة لهم من أهل المدينة عند الهجرة إليها، وفي ذلك تطمينات نفسية يمكن أن تطرد القلق عنهم إذا تذكرنا أنهم كانوا ممقوتين بين الكفار في مكة، أو الود الذي سيلقونه في الآخرة.

ثانياً: دلالة القصص القرآني:

سيقف البحث في هذا المقام للحديث عن الدلالة النفسية التي تشي بها الآيات القرآنية التي سردت أحداث القصص القرآني في سورة مريم، وسنقتصر على قصة

التفكر في رحمة خلت، ورحمة ستأتي سيكون باعثاً، ومؤملاً، ومشجعاً للنبي محمد (ص) في استمراره بنشر دعوته، وتجاوز كل ما يكون عائقاً بوجهها.

ولعلنا نستطيع أن نلمح في الجو العام للسورة المباركة عاملين؛ كان في كل واحدٍ منهما سلوة وعزاء ومشجع في الوقت نفسه للاستمرار بالدعوة؛ الأول هو الحديث عن المعجزات التي أيد الله سبحانه وتعالى أنبياءه الذين وردت قصصهم في السورة؛ فزكريا قد رزق بالوارث بعد أن بلغ به الكبر، مع أن امرأته كانت عاقراً، ومريم قد حملت بعبسى من غير زوج، والمسيح قد تحدث في مهده وهو صبي، ونصر إبراهيم ورزقه بالولد بعد طول عمر، ونصر موسى وتأيدته بهارون وزيراً وناصرًا. وغير خافٍ إن الحديث عن توارده هذه المعجزات الإلهية على من أخلص لله سبحانه وتعالى، ثم تحقق النصر الإلهي لمن وعد من عباده سيخلق جواً نفسياً ملائماً يمكن أن يحيط بالدعوة وصاحبها ويكون دافعاً قوياً يجعله مستمراً بتبليغ ما أمر به متيقناً أن الله سيظهر أمره، وينصره، ولك أن تتخيل ما كان يحتاجه النبي (ص) من عزيمة وقوة إذا تذكرت كل الأساليب التي واجه قومه بها دعوتهم، ولا أدل على ذلك من قوله (صلى الله عليه وآله): (ما أؤذي نبيٍّ مثلما أؤذيت). ومن هنا تأتي أهمية النظر إلى الجانب النفسي عند الحديث عند دلالة السورة القرآنية وألفاظها. والعامل الثاني هو إلحاح السورة الواضح على اقتران النصر الإلهي بالاعتزال عن القوم؛ فزكريا كان يعتزل قومه للتفرد للعبادة حتى وصف دعاؤه بأنه خفي، ومريم كانت ((انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا))^(٢٣)، وإبراهيم (عليه السلام) لم توهب له الذرية إلا بعد أن ((اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ))^(٢٤)، وغير خاف ترك موسى لأهله والتوجه جانب طور الأيمن لاستماع الخطاب الإلهي، ثم بداية النبوة.

الصيغة قد تكررت في مواضع أخرى من السورة منها قوله تعالى: ((فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهِنَّ وَالشَّيَاطِينَ))^(٢٩) وغيرها من الآيات^(٣٠).

ثم تأتي بعد ذلك الآيات التي تسرد بعض تفصيلات القصة، وسنقف معها محاولين تلمس ما تحمله من دلالات نفسية يمكن أن تضاف إلى ما قاله أهل التفسير في معانيها.

وأول هذه الآيات قوله تعالى: ((إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا))^(٣١). وقد استوقفت هذه الآية كثيراً من المفسرين من القدامى والمحدثين، والذي استوقفهم فيها هو محاولة الربط بين قوله سبحانه وتعالى عن دعاء زكريا (نداء) ووصف النداء بقوله: (خفياً). والسؤال الذي يطرحه الجميع: كيف يمكن أن يكون الدعاء نداءً مع كونه خفياً؟

وقد انقسم المفسرون في توجيه معنى ذلك على فريقين؛ الأول: وقع في وهم لأنه كان يحتمل وجود تعارض بين النداء وخفائه؛ لتصوره أن المقصود بالخفاء: الخفوت^(٣٢). أي انه لم يكن يجهر بدعائه، بل كان ذلك منه بصوت خافت لا يسمعه أحد. والحق إن الذي يقابل الخفاء هو الإعلان، والجهر يقابل الإخفات. وعلى ذلك فلا وجه لما ذهبوا إليه، فضلاً عن أننا لا نجد في النص الكريم ما يوحي إلى ما ذهبوا إليه من معنى.

والفريق الثاني^(٣٣) لا يجد تعارضاً بين الأمرين، فإخفاء الدعاء لا ينافي كونه نداءً، إذا حملناه على أنه كان يجهر بتلك الدعوة في خلوة عن الناس ومعزل (فلا منافاة بينهما إذا فسر النداء برفع الصوت؛ لأن الخفاء غير الخفوت، ومن رفع صوته في مكان ليس بمرأى ولا مسمع عن الناس فقد أخفاه)^(٣٤).

وبعد توقفنا على رأي كل من الفريقين يلزمنا البحث عن سر إخفاء الدعاء عن الآخرين، وهنا نجد أن النظر إلى النص في ضوء ما كان زكريا (عليه السلام) يعانيه ويكابه ربما سيقدونا إلى معرفة سر إعراضه عن إعلام الناس

زكريا، ومريم، وإبراهيم (عليهم السلام)؛ لأن القرآن فصل في قصص هؤلاء جميعاً وأعرض عن تفصيل قصة موسى، وإسماعيل، وإدريس واكتفى بالإشارة إلى أصحاب هذه القصص.

١. قصة زكريا (عليه السلام):

لقد افتتحت سورة "مريم" المباركة بالحديث عن قصة زكريا (عليه السلام) وهي السورة الوحيدة التي ابتدأت بالحديث عن القصة القرآنية مباشرة من غير مقدمات. وقد احتلت قصة زكريا في هذه السورة حيزاً كبيراً، إذ امتدت على أربع عشرة آية قرآنية، ولا غرابة في ذلك، فالسورة المباركة هي الموضع القرآني الوحيد الذي فصلت فيه قصة سيدنا زكريا.

وفي مقدمة القصة نجد الحق سبحانه وتعالى يتحدث عن الرحمة التي غمر بها عبده زكريا، وكأنه بذلك يجمل المعنى الذي ستفصله الآيات فيما بعد بهذه الآية الأولى: إذ يقول: ((ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا))^(٣٥). ولا يمكن تخطي هذه الآية إلا بالوقوف عند بعض مفاصلها؛ فالآية المباركة أولاً افتتحت القصة بالحديث عن الرحمة الإلهية التي عمت زكريا (عليه السلام)، ولم تبدأ بالتسلسل المنطقي لمفاصل القصة القرآنية، فكأنها ابتدأت بنهاية القصة، وهي استجابة الله سبحانه لدعوة زكريا، ورزقه بالوارث بعد طول عمر، وعقم زوج، معرضةً بذلك عن كثير من التفصيلات التي رافقت قصة سيدنا زكريا. والأمر الآخر الذي يأخذ باهتمام المتلقي هو اختياره سبحانه وتعالى لاسمه المبارك ((رب)) وإضافته إلى كاف الخطاب، دون غيره من الأسماء الإلهية الحسنى، فقال: ((ربك)) وسنوجل الحديث عن سر اختيار هذا الاسم المبارك إلى موقع آخر من البحث عند الحديث عن الدلالة النفسية للتكرار. ولكن لا يفوتنا أن نذكر هنا إن ذكره تقدست أسماؤه لهذا الاسم مضافاً إلى رسوله الكريم (ص) فيه تفخيم لشأن رسول الله، ورفع منه^(٣٨). ونجد أن هذه

مع التذکر دائماً إن المسبب الآخر لوجود الولد - متمثلاً بزوجه - فيه قصور وعجز أيضاً - وكل هذه التفاصيل تزيد الدعاء توكيداً لما فيها من الارتكاز على حول الله وقوته، والتبري عن الأسباب الظاهرة^(٤٠).

وربما وجدنا في صيغة الطلب ما يؤيد كل ذلك؛ فهو قال: (فهب لي) ولم يختار لطلبه لفظاً آخر، أو صيغة أخرى، كـ (ارزقني) أو أعطني... أو غير ذلك، وإنما اختار (هب) لأنه فاقد لكل المقدمات التي يمكن أن يرزق بسببها بالولد، فكأنه طلب هبة من الله سبحانه من غير أن يملك مقدماتها. ويقوي هذا قول الله تعالى بعد ذلك: (من لدنك)؛ (لكونه آيساً من الأسباب العادية التي كانت عنده؛ وهي نفسه وقد صار شيخاً هرمًا ساقط القوى، وامرأته وقد شاخت وكانت قبل ذلك عاقراً)^(٤١)، ويذهب الألوسي إلى أبعد من ذلك ليرى أن (تأخير المفعول عن الجارين لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة على ذلك الوجه البديع مع ما فيه من التشويق)^(٤٢). ثم بعد ذلك كله نجد أن في قوله تعالى: ((وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا)) جوامع الاستجابة لدعائه (عليه السلام)؛ إذ لم يكتف زكريا بتوضيح الحال التي هو عليها من الضعف والعجز، بل ذهب إلى الحديث عن كرم الله سبحانه وتعالى الذي يفيض به على عباده، والذي ألفه زكريا وتعوده.

ووجه التوسل بهذه الفقرة من الدعاء يمكن النظر إليه من وجوه عدة؛ أحدها إنه (عليه السلام) إنما قرن حاجته بأمرين؛ الأول: ضعفه عن ذلك، والثاني: ثنائه على الله سبحانه وتعالى ومدحه إياه بأنه لم يرد له يوماً طلباً، وإنه سبحانه عودته الاستجابة إذا دعاه، وفي هذا ما فيه من حسن التحايل والتلطف في الطلب، روي إن محتاجاً سأل واحداً من الأكابر فقال: أنا الذي أحسنت إليه وقت كذا. فقال: مرحباً بمن توسل بنا إلينا ثم قضى حاجته^(٤٣). والوجه الآخر ما ذهب إليه الرازي (هو إن مخالفة العادة شاقة على النفس، فإذا تعود الإنسان إجابة الدعاء فلو صار

بدعائه، ويمكن النظر إلى ذلك من زوايا متعددة؛ فلا يبعد أن يكون زكريا قد بث دعاءه وشكواه إلى ربه وهو في حال مناجاة له مع الله، ومعلوم أن لخلص عباد الله وأوليائه أوقات مع الله لا يشاركهم فيها أحد. ويرجح ذلك أن الدعاء كان في جوف الليل كما في الرواية^(٣٥). ويذهب القشيري أبعد من ذلك فيقول: (إنما ذلك لئلا يطلع أحدٌ على سر حاله فأخفى نداءه عن الأجانب، وقد أمكنه أن يخفيه عن نفسه بالتعامي عن شهود محاسنه والاعتقاد بالسوء في نفسه)^(٣٦)، والى شيء من ذلك ذهب صاحب الميزان^(٣٧). ويحتمل أيضاً إن إخفاء الدعاء أخلص للدعاء وأرجى للإجابة وأبعد عن الرياء^(٣٨)، وربما أخفى دعاءه عن الناس لئلا يهزؤوا به؛ لأن طلبه الولد بعد كبر سنه وعقم زوجه كان مخالفاً لمنطق العقل، والطبيعة البشرية فأخفاه عنهم، وبذلك قال أكثر المفسرين.

ويتحول النص القرآني بعد ذلك إلى ذكر الدعاء فيقول على لسان زكريا: ((قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا))^(٣٩). وقد تضمنت هاتان الآيتان دعاء زكريا بطلب الولد. ولعلنا نجد أنه عليه السلام لم يبدأ دعاءه بذكر مطلبه، بل قدم لذلك بأسلوب رائع يتيح للمتلقى أن يعيش معه أجواءً نفسية رائعة. وقد قدم زكريا بين يدي الدعاء ثلاث مقدمات بها جميعاً استنزل النعمة واستدر عطف الله سبحانه؛ الأولى: إنه ذكر أنه ضعيف لا يقوى على شيء وإن الكبر قد أخذ منه مأخذاً، فضلاً عن أن زوجه كانت عاقراً لا تلد، والثانية: إن الله تعالى ما رد دعائه البتة، والثالثة: كون مطلبه سبباً للمنفعة في الدين، فهو إنما طلب من الباري سبحانه من يرثه في خدمته ويكون امتداداً لرسالة الله السماوية، وبذلك يكون استوفى الصورة المثلى للدعاء؛ ويبدو إنه أشار بوهن العظم إلى الضعف الباطن في قواه، وباشتعال الشيب في رأسه إلى الضعف الظاهر،

زكريا، والذي يتضح من فقرات الدعاء التي تحدثنا عنها سابقاً. ولعل البحث عن الدلالة النفسية لهذه الآيات في هذا المقام هو الكفيل في الوصول إلى هذه المعاني بعيداً عن المعاني الأخرى التي قال بها المفسرون باختلاف مرجعياتهم.

ويأتي بعد ذلك جواب زكريا (عليه السلام) استعجاباً من هذا الذي سيتحقق واستبشاراً أيضاً، ((قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا))^(٤٧). وقد استوقفت هذه الآية الكريمة المفسرين طويلاً^(٤٨) من بين أخواتها في سورة مريم؛ إذ حاولوا إيجاد تفسير لقوله: ((أنى يكون لي غلام))، وحاولوا التوفيق بين عدة أمور كانت رازمة في ذهن كل واحد منهم أثناء محاولته الكشف عن معنى الآية. ويمكن الحديث هنا عن عدة أمور؛ أولها: أن زكريا (عليه السلام) نبي من أنبياء الله، ويقتضي هذا أن يكون معصوماً لا يجوز عليه الخطأ، ولا يصدر عنه، وأنهم وجدوا في طريقة الاستفهام هذه - حسب رأيهم - ما يمكن أن ينافي العصمة، أو يكون بعيداً عن خلق الأنبياء. ومن المهم هنا أن نذكر مواقف أخرى مشابهة صدرت عن بعض الأنبياء (عليهم السلام)، إن لم تكن أكبر مما صدر عن زكريا، فإبراهيم (عليه السلام) طلب من الله أن يريه كيفية إحياء الموتى، قال تعالى: ((وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُونَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي))^(٤٩). والمتأمل يستطيع ربط قول زكريا بطلب إبراهيم (عليهما السلام) على اختلافهما. فالذي لاشك فيه ولا مريية إن زكريا كان مؤمناً أيضاً بأن الله على ما يشاء قدير، وربما طلب استعلام كيفية تحقق هذا الأمر ليزداد اطمئنانه بتحقيق الأمر ((فان من يسر بما لا يتوقعه لتوفر الموانع وفقدان الأسباب تضطرب نفسه بادي ما يسمعه فيأخذ بالسؤال عن خصوصيات ما بشر به ليطمئن قلبه، ويسكن اضطراب نفسه، وهو مع ذلك على يقين من صدق ما بشر به؛ فإن الخطورات النفسية ربما لا

مردوداً بعد ذلك لكان في غاية المشقة؛ لأن الجفاء ممن يتوقع منه الإتمام يكون أشق، فقال زكريا (عليه السلام): إنك ما رددتني في أول الأمر مع أني تعودت لطفك وكنيت قوي البدن قوي القلب، فلو رددتني بعدما عودتني القبول مع نهاية ضعفي لكان ذلك بالغاً إلى الغاية القصوى في القلب^(٤٤). وثمة وجه آخر ذكره صاحب الميزان، يحتمله السياق القرآني، ويمكن أن يوجه به الدعاء توجيهاً نفسياً، مع أنه أضعف من سابقه، يقول: (إن دعائك) مصدر مضاف إلى الفاعل، والمعنى لم أكن بدعوتك إياي إلى العبودية والطاعة شقياً متمرداً غير مطيع، بل عابداً لك مخلصاً في طاعتك^(٤٥).

ويأتي بعد ذلك قوله تعالى في مقام الرد على دعاء زكريا فيقول: ((يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا))^(٤٦)، ولعلنا نجد أن الرد كان متناسقاً تناسقاً رائعاً، ويبدو إنه جاء ليبي حاجة ناتجة عن قلق نفسي كبير كان عاشه (زكريا). وربما نجد في قوله تعالى (نبشرك) دون غيره من الألفاظ في مقام الرد ما يقوي هذا الذي ذكرنا. فأنت لا تبشر أحداً بأمر ما إلا إذا كان مستينساً من تحققه أو مستبعداً له على أحسن الأحوال واستدكار دعاء زكريا (عليه السلام) يؤكد هذه المسألة، فهو طلب الولد ذاكراً كل الموانع التي يمكن أن تمنع تحقق الطلب، ولذلك كان الرد بـ(نبشرك)، ثم جاءت المؤكدات الأخرى بذكر اسم المولود الذي سيأتي. ولعل (يحيى) (عليه السلام) هو النبي الوحيد الذي يصرح النص القرآني بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي سماه، ولم يترك ذلك لوالديه، بعد أن سمي السيد المسيح (عليه السلام). وفي هذا ما فيه من آيات العناية والاهتمام بعبده زكريا، وتحقيق إجابة دعوته فضلاً عن عنايته بالمولود الآتي. وتتم البشارة بأن هذا المولود لم يسم أحدٌ قبله بهذا الاسم. وبذلك يمكن القول إن هذه الآية الكريمة - بكل ما ذكرنا - تشكل معادلاً موضوعياً لصورة القلق والحزن والخوف الذي كان يعيشه

أسباب هذا الاستفهام، فزكريا (عليه السلام) - كما تذكر لنا سورة آل عمران - كان كافلاً لمريم، وكان يتردد عليها في بيت المقدس يتفقد أحوالها، وكان حينذاك يرى ما عليها من الكرامات التي كان آخرها تكرر وجود الرزق عندها ((كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا)) وتكرر هذه الحالة مع مريم آثار استغرابه حتى بادرها بالسؤال: ((قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا)).

ونحتاج في هذا المقام أن نستحضر الآيات القرآنية التي تذكر لنا القصة نفسها في آل عمران، ثم محاولة الربط بين المعنى في هذه الآيات وتلك. قال الحق سبحانه: ((كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ))^(٥٦).

وهذا النص القرآني يبين لنا الحال التي كان عليها زكريا، ويذكر لنا ما أطمعه في سؤال الولد (فكأنه - عليه السلام - لما انقلب حالاً من مشاهدة أمر مريم وتذكر انقطاع عقبه لم يشعر إلا وقد سأل ربه ما سأل، وقد ذكر في دعائه ماله سهم وافر في تأثره وتحزنه... فلما استجيبت دعوته وبُشِّرَ بالولد كأنه صحا وأفارق مما كان عليه من الحال فصار ما يثير على وجهه غبار اليأس وسيماء الحزن يغيره إلى نظرة التعجب المشوب بالسرور)^(٥٧) وعلى ذلك فهو كان يتقلب بين حالين؛ حال وجد فيه من تكرر وجود الرزق عند مريم دون سعي منها دافعاً ومشجعاً على طلب الذرية - ذلك الطلب الذي كان يلح عليه - يؤيد ذلك قول مريم (عليها السلام) حين سألها عن ذلك: ((هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)). فعاش في خضم ذلك كله أجواء خاصة مع ربه فطلب ما طلب من غير أن يجد في طلبه مبالغة، ثم لما أفارق من هذه الحال وجاعته البشارة لم يستطع أن يخفي تعجبه المشوب بالسرور - من غير إنكار - فقال ما قال. ألا

تنقطع مع وجود العلم والإيمان^(٥٨). وبشيء من هذا قال بعض المفسرين^(٥٩). وربما وجدنا في قول إبراهيم الخليل (عليه السلام) بعد تبشيره بالولد: ((قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ))^(٦٠) ما يقوي هذا الذي ذكرنا. أما كليم الله موسى (عليه السلام) فقد ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أخواه كثيراً فقال: ((رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ))^(٦١).

والأمر الثاني الذي يثير استغراب المتأمل، ويحاول البحث عن موجه له هو: ما الذي دفع زكريا إلى مثل هذا الاستفهام حين بُشِّرَ بالإجابة مع إنه هو الذي طلب الولد، وقدم بين يدي دعوته كل الموانع الطبيعية التي تحول دون تحققه. ولنتأمل جيداً استفهام زكريا: ((قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا)) فاستفهامه إذن كان نابعاً من رحم المشكلة التي كان يعانيها والمتكونة من ركنين؛ عقر امرأته، وكبر سنه. وهذه الموانع كان ذكرها في مقدمة دعائه الذي ورد في صدر السورة المباركة. فما وجه الاستفهام وهو يعلم ما به وقد دعا بما دعا؟ وقد ذكر المفسرون^(٦٢) لتوجيه هذه المسألة وجوهاً عدة؛ منها انه استفهم ولم يكن متعجباً من الأمر، ووجه استفهامه هو هل أتك ستعيدنا شابين ليتحقق هذا الأمر، أو هل سيتحقق من زوج أخرى، أو بإصلاح زوجه الأولى مستدلين بقوله تعالى في موضع قرآني آخر: ((فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ))^(٦٣)، وقد ذهب بعضهم إلى ان المدة بين الدعاء والإجابة كانت طويلة فجاء الاستفهام.

وبعيداً عن الخوض في صحة ما قيل، واحتمال السياق له من عدمه، فإننا نجد أن هناك إمكانية لإيجاد معنى آخر، ودلالة نفسية رائعة إذا ما تتبعنا سياق هذه القصة القرآنية في غير هذا الموضع، فمراجعة القصة في سورة آل عمران يكشف لنا أن القول الذي ورد على لسان زكريا يحتمل أن يكون فرحاً بما بشر به واستبشاراً وسروراً، لا تعجباً وشكاً كما قيل، وبذلك يرتفع البحث عن

فاجأها هذا الذي (تَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) وهي في خلوة من أمرها، ولم تجد في تلك اللحظة ما تلجأ إليه للخلاص من هذا الأمر المريب - وهي على ما هي عليه من التقى والورع والحشمة - وبذلك لا يبقى أمامها إلا أن تقول ما قالت من وجهين؟ الأول: هو الفرار إلى الله سبحانه وتعالى بقولها: (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ)؛ إذ (لما أدهشها حضوره عندها وهي تحسب أنه بشر هجم عليها لأمر يسوؤها استعادت بالرحمن استدرازا للرحمة العامة الإلهية التي هي غاية آمال المنقطعين إليه من أهل القنوت)^(١٢).

وهنا لابد من الإشارة إلى أنها اختارت اسم (الرحمن) من دون أسمائه الحسنى لتستعيز به، وفيه من سر الاختيار ما لا يخفى على ذي نظر. والوجه الثاني: إنها توجهت بعد الاستعاذة إلى هذا الذي أمامها بالخطاب محاولة درء خطره عنها، فكان شرط الاستعاذة التي تقدمت قولها: (إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا). وكأنها بذلك تلقته ما تريد من أمر، وهو الابتعاد عن أذاها وذلك لأنها خاطبت فيه مشاعر إنسانية تأبى أن ينفى عنها كل وصف جميل وحسن بين الناس، و(التقوى وصف جميل يشق على الإنسان أن ينفيه عن نفسه، ويعترف بقصده فيؤول المعنى إلى مثل قولنا: إني أعوذ واعتصم بالرحمن منك إن كنت تقياً، ومن الواجب أن تكون تقياً، فليردعك تقواك عن أن تقصدي بسوء)^(١٣). فأنت تقول لأحد ما: افعل هذا إن كنت مخلصاً أو صادقاً فتراه يندفع إليه - ربما لاشعورياً - ليس لأنه يؤمن بما يعمل فقط، بل لأنه يريد أن يوصل لك رسالة بأنه يستحق الوصف الذي ذكرت من الصدق أو الإخلاص. وربما نجد في الأسلوب القرآني ما يشابه هذا الخطاب دفعا للمخاطب وتشجيعاً له. قال تعالى: ((وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ))^(١٤) وقال: ((وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ))^(١٥).

وينتقل الحديث الآن إلى قوله تعالى بعد ذكر حديث المخاض: ((فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا* وَهَزِيْ إِلَىكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا*

تري أن من يتحقق له أمر كان يراه بعيداً وصعب التحقق، يتعجب من تحققه مسروراً من دون أن يكون منكرًا لما تحقق، فهو مائل بين يديه. يقول الرازي في معرض تعليقه على هذه الآية: (إن من شأن مَنْ بَشُرَ بما يتمناه أن يتولد له من فرط السرور عند أول ما يرد عليه استتبات ذلك الكلام؛ إما لان شدة فرحه به توجب ذهوله عن مقتضيات العقل والفكر... وإما طلباً للالتذاد بسماع ذلك الكلام مرة أخرى)^(٥٨).

٢. قصة مريم (عليها السلام):

تأتي قصة مريم مباشرة بعد الحديث عن قصة زكريا (عليه السلام). وتمتد قصتها في السورة المباركة من الآية السادسة عشرة إلى الآية الرابعة والثلاثين منها. وسيقف البحث عند بعض آيات القصة التي يمكن أن توجه توجيهاً نفسياً، أو لعلنا لا نقف على دلالة راجحة فيها إلا إذا نظرنا إليها وفق هذا المنظور. وأول آية سنقف عندها هو ردها عليها السلام حين رأت ذلك الملك الذي جاء ليهب لها الغلام الزكي والذي تمثل لها بصورة إنسان فد- (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا))^(٥٩). وهذه الآية احتلت حيزاً واسعاً من جهد المفسرين، واستوقفهم طويلاً؛ إذ حاولوا إيجاد توجيه لقولها: (إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا). فما وجه استعاذتها بالله سبحانه من هذا الذي تمثل لها بشراً إذا كان تقياً؟ وهل يستعاذ منه إذا كان بهذا الوصف؟

وقد ذهبوا في توجيه ذلك مذاهب شتى؛ فرأوا أن التقى إذا تعوذ بالرحمن منه ارتدع عما يسخط الله وفي ذلك ترهيب وتخويف له، وقيل: أن معناه: ما كنت تقياً^(٦٠)، فضلاً عن وجوه أخرى بعيدة عن مقتضى السياق ذكرها أهل التفسير^(٦١).

والحق إننا إذا نظرنا إلى الآية القرآنية في ضوء سياق المقام، والسياق النفسي الذي أحاط بها سنقف على دلالات أخرى يمكن أن تكون هي الوجه الأمثل في توجيه معناها. فمريم (عليها السلام) امرأة مغلوبية على أمرها قد

وإذا نظرنا إلى سياق القصة بصورة عامة سنصل إلى توجيه نفسي وعاطفي يختلف عما قيل من قبل؛ إذ يحتمل أن الله سبحانه وتعالى إنما ذكر المعجزتين في المقام لتقوية قلب مريم، وشخذه همتها من جديد لتكملة المرحلة الثانية التي يتوجب عليها القيام بها، وهي حمل الولد، والذهاب به إلى قومها. وقد نوه إلى هذه المهمة في قوله تعالى في آل عمران: ((يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ* وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ))^(٧٢). وغير خاف إن مريم (عليها السلام) في الحال التي هي عليه لا تقوى على ذلك الأمر، ولا تطبيقه لأن فيه افتضاح أمرها، وبسط لسان الملامة من قومها عليها في أحسن التقديرات، ويقوي هذا ذهبا إليه من ضعفها وعدم قدرتها على ذلك قولها حين المخاض: (يا ليتني مت قبل هذا) فهي مع ما كانت تراعى به من الكرامات والمعجزات، من وجود الطعام بلا سبب، والحمل من غير زوج، والبشارة السابقة من الله سبحانه بالمسيح، والوعد بإظهار أمره وإنه سيتكلم وهو صبي، إلا إنها كانت بحاجة مستمرة إلى تعدد البواعث والمشجعات التي تستطيع من خلالها تكملة رسالتها، ولذلك كان حديث معجزتي جريان الماء، والرطب، ويؤيد هذا - فوق ما ذكرنا- أيضاً قوله تعالى في ذيل حديثه عن المعجزتين (وقري عيناً)، ولعلك تتفق معي إن قررة العين لا تكون بالأكل والشرب حتى وإن كانت الحاجة ماسة إليهما، وكأن الله سبحانه قد بشرها بأنه سيبرأ ساحتها أمام قومها ويكف أذاهم عنها، فكان في كل ذلك سلوة لها، وباعثاً ومقوياً لعزيمتها.

ونجد تفسيراً رائعاً قال به أحد مفسري الصوفية لهذه الآية محاولاً الربط بين الأمر بهز جذع النخلة وما فيه من الإشارة لطلب الرزق، وبين مجيء الرزق لها في سابق حالها بلا تكلف، ثم محاولة ربط ذلك بالتخلي عن الاغيار وترك التعلق بالأسباب، والتجرد لله سبحانه فقط ليرى أنها

فكُلي وأشربني وقرِّي عيناً))^(٦٦) وفي هذه الآيات الكريمة دلالات نفسية متعددة يمكن أن تبوح بها كلمات الله سبحانه؛ الأولى: مناداة مريم ومطالبتها بعدم الحزن، وبغض النظر عن البحث عن المنادي هل هو الملك، أم المسيح (عليه السلام) ففي هذا الحديث تطمين لنفس مريم وتسلية لها بعدما استبد بها الحزن لما رأت الأمر قد تحقق، وخالتها خوف من اطلاع قومها على ما حدث. وربما لا نستطيع تصور الظرف النفسي المرير الذي كان يحيط بها بعد أن تحقق أمر الحمل، وانتهى إلى المخاض والولادة التي ستظهر كل شيء ربما حاولت إخفائه إلا إذا نظرنا إلى قولها: ((يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا))^(٦٧)، فالإنسان - بلا شك - لا يلجأ إلى مثل هذا القول إلا إذا ألم به أمر يكون معه عاجزاً عن التعامل معه، أو معالجته، ولذلك وبعد كل هذا اليأس والإحباط الذي نزل بها جاء الأيس بقوله تعالى (ألا تحزني). ولعل هذا واضح من سياق النص، ولا يحتمل خلافاً على صحته.. والدلالة النفسية الأخرى التي يمكن الوصول إليها والتي تختبئ خلف ألفاظ الآيات القرآنية هي التي تنبثق مع الحديث عن المعجزتين اللتين أراهما الله سبحانه وتعالى مريم بعد الوضع؛ وهما: جريان الماء من غير عين، وتساقط الرطب من جذع نخلة يابس، وقد وقف بعض المفسرين أمام هذا الأمر محاولين الوصول إلى توجيه له ليصل بعضهم إلى دلالات خجلى لا تتناسق مع السياق القرآني، وسياق الحال في القصة القرآنية. يقول الزمخشري: ((التمر للنفساء عادة في ذلك الوقت، وكذلك التحنيك... وقيل ما للنفساء خير من الرطب... وقيل إذا أعسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب))^(٦٨) وبمثل هذا قال الطبرسي^(٦٩)، والرازي^(٧٠)، والآلوسي^(٧١). وربما ذهب من ذكرنا إلى أبعد من ذلك قليلاً؛ ليروا أنه سبحانه إنما أراد أن يؤنس وحشتها، وخوفها بهذا الولد الذي سيكون قررة عين لها.

لنفسه. وهنا لا بد من التركيز على أمر هام جداً؛ فهو لم يبه أباه في البداية عن عبادة الأصنام، ولم يقل له بصورة مباشرة اترك ما تعبد واسلك معي الطريق الجديد بل راعى في كل ذلك نفسية المتلقي ودرجة تقبله لأمر مثل الذي جاءه به؛ فبدأ أولاً بالاستفهام عن سر العبادة الفارغة للأصنام فقال: ((إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا))^(٧٦)، ثم راح يعرض ما نزل عليه من العلم الذي لم يكن للأب نصيب فيه، ثم أمره بإتباعه فقال: ((فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا))^(٧٧) ثم جاء النهي عن عبادة الشيطان وأتباعه لما في ذلك من عواقب لم يكن يتمناها له فقال: ((يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ))^(٧٨). ثم حاول تبرير كل ذلك بدءاً من الاستفهام وانتهاءً بالنهي عن عبادة الأصنام فقال: ((يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا))^(٧٩) وسنقف عند هذه المحطة وقفة متأنية للتنبؤ على مسألة غاية بالأهمية؛ فمع أن المقام الذي يتحدث فيه إبراهيم مقام تحذير وتخويف من سوء العاقبة إلا إن الخليل لم يغادر شيئاً من الشفقة على أبيه إلا وسله، إذ لم يخل هذا التحذير من التلطف والإشفاق وحسن المعاملة وكأنه بذلك يستدر بذلك رحمة من الله سبحانه كي تحل على أبيه بالرغم مما هو عليه. ولهذا الذي أشرنا إليه أمارات وإشارات وردت في النص نفسه؛ فإذا نظرت إلى دقة اختيار الألفاظ التي اختارها من مثل: أخاف، ويمسك، وعذاب (بصيغة التنكير) تلمس ما يؤيد ذلك. وربما نجد في مرجعيات هذه الألفاظ معجماً ونحوياً ما يدلنا على أنه كان في مقام طلب الرحمة أو لنقل في مقام إطماع المدعو وترجيته برحمة الله سبحانه التي تسبق غضبه؛ فالخوف كما يقول الراغب الأصفهاني (توقع مكروه عن أمارة مظنوننة أو معلومة)^(٨٠). فهو باختياره هذا اللفظ غير قاطع بوقوع العذاب أو نزوله، بل يخاف أن يكون ذلك واقعاً. هذا أولاً، ثم قال: (يمسك) وفي هذا اللفظ دلالة نفسية رائعة، فالمس

عندما كانت مجردة بلا علاقة، فقد كان زكريا - عليه السلام - يجد عندها رزقاً من غير أن أمرت بتكلف، فلما جاءت علاقة الولد أمرت بهز النخلة اليابسة وهي في أضعف حالها؛ زمان قرب عهدا بوضع الولد ليعلم أن العلاقة توجب العناء والمشقة^(٧٣).

٣. قصة إبراهيم (عليه السلام):

امتدت قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - في سورة مريم على مساحة عشر آيات فقط فقد بدأت من الآية الواحدة والأربعين وانتهت في الآية الخمسين منها. وسيقف البحث هنا عند الحوارية التي دارت بين إبراهيم وأبيه حين حاول دعوته إلى طريق الحق والهداية. وقبل الخوض في جزئيات هذه الحوارية وتلمس ما تحمله من دلالات نفسية لا بد من الإشارة إلى الجو العام الذي أحاط بطرفي هذا الحوار؛ فأسلوب إبراهيم اتسم بالرفق واللين والتودد والتحبب والأدب الجميل، والخلق الحسن، وهذا يدين الأنبياء في دعوتهم كما أمرهم الله سبحانه مع إننا نلاحظ أسلوباً خاصاً عن الخليل (ع) في حين اتسم رد (آزر) بالعنف والجفاء والوعيد والتهديد. وسنقف بعد قليل عند جزئيات هذين الموقفين وتحليلها للوقوف على ما يمكن أن يفسر به كل ذلك.

قال تعالى على لسان إبراهيم: ((يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا))^(٧٤) وهنا نجد إبراهيم على أعلى درجات اللياقة في دعوته أباه؛ إذ لم يسمه بالجهل المفرط، وإن كان في أقصاه، ولم ينسب إلى نفسه العلم وإن كان كذلك، بل ابرز نفسه في صورة رفيق له فقال: إن معي طائفة من العلم، وشيئاً منه ليس معك، فلا تستكف عن دعوتي إياك^(٧٥). وكان إبراهيم (عليه السلام) استنبطن نفس أبيه وكان يتوقع منه عدم قبول دعوته بمجرد البدء بها ولذلك نجده سلك تسلسلاً رائعاً في عرضه الدعوة على أبيه. والآية التي نتحدث عنها جزء من سياق متكامل اختطه إبراهيم

إنكار حجيتها؛ ولهذا كان الرد عنيفاً ومعروف إن مَنْ لا يمتلك الدليل يلجأ إلى أسلوب العناد، والمكابرة، والتطرف.

٢- ربما كان كبيراً على (آزر) أن الذي يدعوه إلى هذا الأمر الخطير المتمثل بدعوته إلى إبدال معتقده هو هذا (الفتى) - حسب التعبير القرآني- والذي يبدو من سياق القصة في مواضعها المختلفة أن إبراهيم كان صغير السن إذا ما قيس بأبيه آزر.. ولعل هذا كان عاملاً إلى رفض الدعوة مباشرة حتى قبل التفكير بها.

٣- ثمة مَنْ يرى أن إبراهيم لم يكن ابناً في الحقيقة لـ(آزر)، وربما كانت دعوته المتكررة له بـ(يا أبت) قد أثارت في نفسه سخطاً ما، ولذلك قابل رفقه المتكرر بالعنف؛ حيث لم يقل له يا بني بمقابل (يا أبت)، بل قال: (يا إبراهيم) مباشرة.

ثالثاً: دلالة التكرار:

يصل البحث الآن إلى محطته الأخيرة للحديث عن الدلالة النفسية للتكرار في سورة مريم.. ولن نطيل الحديث عن أهمية التكرار في الدرس اللغوي، وأثره الدلالي في أي نص، بل سيقف البحث عند الدلالة النفسية التي يمكن تتبعها بثقة لتكرار بعض الألفاظ والتراكيب في السورة وهي: (ربّ، الرحمن، يا أبت).

١- (ربّ): تكررت مفردة (ربّ) مجردة ومضافة إلى الضمائر باختلافها ثلاثاً وعشرين مرة؛ عشر مرات منها كانت مضافة إلى ضمير المخاطب أو المخاطبة (ربّك) (٨٤)، ومضافة إلى ياء المتكلم في تسعة مواضع أخرى، خمسة منها حذفت هذه الياء من التركيب فكان (ربّ) (٨٥)، وأربعة أخرى، كانت موجودة (٨٦).

وجاءت في موضعين مضافة إلى ضمير الغائب (ربّه) (٨٧)، ومضافة إلى ضمير المخاطبين مرة واحدة فقط (ربكم) (٨٨). ووردت مجردة عن أي ضمير في مرة واحدة فقط أيضاً (٨٩). فقد أضيفت إلى الظاهر .

إشعاراً بالقلّة، وهو غير وقوع الأمر حقيقة، ثم جاء بعد ذلك بكلمة (عذاب) على صيغة التنكير لا التعريف، وهو بذلك لم يخصص هذا العذاب؛ إذ بقي يحتمل التقليل والتعظيم في هذا العذاب.. وهذا كله مما ذكره غير واحد من المفسرين (٨١).

ولعلنا نجد في السياق القرآني ما يقيد دلالة (عذاب) بالرغم من مجيئها نكرة منونة ليصرفها إلى الشيء القليل والهين بداليتين: الأولى انه قرنها بلفظي (أخاف) و(يمسك)، والثانية إضافة هذا العذاب إلى الرحمن: (إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن)؛ فهو لم يختصر سوى اسم (الرحمن) من أسمائه الحسنی سبحانه وتعالى، وواضح أن مجيء هذا الاسم لا يتناسق مع وقوع العذاب أو توقعه والدعوة به.. وإلا لقال: عذاب من الجبار، أو المنتقم أو غير ذلك مما يناسب هذا المعنى. ويرى الآلوسي أن حمل كلمة (عذاب) على أنه العذاب العظيم (مما ياباه المقام؛ لأنه مقام إظهار مزيد من الشفقة ومراعاة الأدب وحسن المعاملة.. وللدلالة على أنه ليس على وجه الانتقام، بل ذلك أيضاً رحمة من الله تعالى على عباده وتنبية على سبق الرحمة الغضب) (٨٢).

ويأتي بعد ذلك رد (آزر) على ما تقدم به إبراهيم: ((قَالَ أَرَأَيْبَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرْتِي مَلِيًّا)) (٨٣) ولا يمكن تجاوز هذا الرد الذي فيه من الجفاء ما فيه إلا بعد محاولة تلمس الدافع الذي حدا به إلى مثل هذا الرد العنيف، مع لحاظ أن إبراهيم (عليه السلام) لم يترك سبيلاً للتلطّف والترفق إلا واستعمله. والذي يبدو أن صراعاً نفسياً كبيراً كان يعاينه (آزر)، فثمة أمور يمكن النظر إليها من زاوية نفسية هي التي دفعته إلى ما قال. ويمكن تلخيصها بالآتي:

١- إن (آزر) لم يجد من الأدلة والبراهين والحجج ما يقابل به دعوة إبراهيم الذي فاجأه بأدلة عقلية لا سبيل إلى

ولا يمكن الحديث عن الدلالة النفسية لتكرار هذا الاسم الكريم، إلا إذ تذكرنا المعاني التي تختبئ خلفه، فالرب في اللغة يطلق على المالك، والسيد، والمدبر، والمربي، والقيم، والمنعم، والمصلح، ورب كل شيء مالكة ومستحقه، وقيل: صاحبه. ويقال: رَبَّ الشيء إذا أصلحه، وربَّ المعروف والصنيعة والنعمة أي نماها وزادها وأتمها وأصلحها. ورببت الأمر أصلحته ومنتته^(٩٠). قال أحد المفسرين: (الرب مجمع جميع أفعال الله المقدسة، لأن جميع أفعاله تبارك وتعالى متشعبة من جهة تدبيره... فالرب مظهر الرحمة والخلق والقدرة والتدبير والحكمة، فهو الشامل لما سواه تعالى. فإنهم المرربوبون له تعالى على اختلاف مراتبهم... ولأجل ما تقدم - من إنه أم الأسماء - وكونه مظهراً لجملة من أسمائه المقدسة لم يرد في القرآن دعاء من عباده إلا مبدوا باسم الرب... ولعل السر في ذلك هو إفادة هذا اللفظ حالة الانقطاع إلى الله تعالى أكثر من غيره)^(٩١).

وإذا حاولنا الربط بين الجو العام للسورة المباركة الذي تحدثنا عنه من قبل، وجزئيات السورة المباركة، وغايتها، وبين هذه المعاني المتعددة للاسم الكريم تكشفت أمامنا أسرار تكراره فيها، وعرفنا ما في تكراره من دلالات نفسية لا تنقضي، فالرب هو من أصلح لذكريا زوجه بعد طول عمر وعقم، وهو من تكفل مريم بالرعاية والعناية مذ كانت طفلة صغيرة في معبد بني إسرائيل، وحتى تبرئة ساحتها أمام قومها عند وضعها المسيح (عليه السلام) من غير زوج، وهو من تكفل الخليل إبراهيم بالرحمة بعد أن كاد به قومه، وهو الذي شد عضد موسى بأخيه هارون، وهو الذي سيتكفل أمر النبي محمد (صلى الله عليه وآله) ويظهر أمره بعد طول تكذيب له من قومه، وهو الذي ينمي دعوته، وأصحابه حتى تكون كلمة الله هي العليا...

كل دعواته في هذه السورة. وذلك (لأن فيه اعترافاً بالعبودية، ولبيان اتمام العناية بعبده وتربيته العظمى له، وفيه كمال الثناء عليه جل وعلا ولأن الدعاء المبدوء بهذا الاسم الشريف أقرب إلى الاستجابة)^(٩٢). ولهذا غلب هذا الاسم الكريم على دعوات كثير من الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم. ولعل إبراهيم أراد استدرار الرحمة والمغفرة لأبيه فقال له: ((سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي)). ثم نجد فوق ذلك كله ان الله سبحانه يخاطب أنبياءه وخواصه بهذا الاسم الكريم مضافاً إلى ضمير الخطاب، وما ذلك منه سبحانه إلا إظهاراً لعنائه واهتمامه بهم، ورفعاً لشأنهم، وشحذاً لعزيمتهم. قال تعالى مخاطباً النبي (صلى الله عليه وآله): ((ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا))^(٩٣)، وقال على لسان الملك مخاطباً مريم المقدسة: ((قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا))^(٩٤). ونجد أيضاً انه سبحانه وتعالى يقسم بهذا الاسم مضافاً إلى ضمير المخاطب مخاطباً نبيه الأكرم فيقول: ((فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ))^(٩٥). يقول الزمخشري في هذه الآية: (في أقسام الله تعالى باسمه تقدست أسماؤه مضافاً إلى رسوله (ص) تعظيم لشأن رسول الله ورفع منه)^(٩٦)، وواضح ما في هذا المعنى من دافع نفسي قوي يكون معادلاً موضوعياً للخلدان الذي كان النبي يلاقيه على يد قومه.

٢. (الرحمن):

تكرر الاسم الكريم (الرحمن) في سورة مريم ست عشرة مرة^(٩٧)، وهذا العدد يدعو المتأمل إلى وقفة متأنية للبحث عن دلالة هذا التكرار، وهنا لا بد من الإشارة إلى جملة أمور يمكن أن تكشف لنا أهمية الحديث عن هذا التكرار العظيم؛ فاسم (الرحمن) قد تكرر في جميع سور القرآن في سبع وخمسين موضعاً - إذا استثنينا البسملة المباركة - كان نصيب سورة مريم ستة عشر موضعاً، وهذا العدد يشكل أكثر من ربع الاستعمال القرآني لهذا الاسم العظيم. وهذا العدد كبير نسبياً إذا تذكرنا أن عدد آيات سورة مريم ثمان وتسعون آية فقط. هذا مع لحاظ أننا لا

ألا ترى أن زكريا قد بدأ دعاءه بقوله (ربّ) فقال: ((رَبِّ اِنِّي وَهِنَ الْعِظْمِ مِنِّي) وكرر استعمال هذا الاسم في

من الرحمة والدلالة على سعتها وعمومها وعدم اختصاصها بأحد دون آخر. أو بعصر دون غيره، وربما كان التوسع في هذه المعاني يعد من نافلة القول.

ومن هنا يمكن القول إن استعمال هذا الاسم الكريم بهذه الكثرة، في مناسبات مختلفة في السورة القرآنية يدلنا على الأجواء الرحمانية الرائعة التي أراد الله سبحانه وتعالى أن تزخر بها سورة مريم في جميع مفاصلها مما يشيع جواً نفسياً رائعاً يدعو للتفكير في عظمة هذا الخالق وسعة حلمه وقبوله من اعرض عنه ولو كان بعد طول عكوف على الجفاء والمعصية، ولعل في جميع ذلك دعوة لجميع المؤمنين إلى إشاعة ثقافة التراحم والتسامح. ألا ترى أن جو الرحمة والتلويح بها وبالغفو أخذ يتصاعد في السورة المباركة حتى شمل الذين أشركوا بالله سبحانه، وادعوا أن له ولداً. قال تعالى: ((وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا))^(١٠٥) وقال سبحانه: ((أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا))^(١٠٦).

فما زال الحق سبحانه يذكرهم بأنه "الرحمن" الذي يمكن أن تسعهم رحمته الواسعة بالرغم من إتيانهم هذا الأمر العظيم -ما إن يعرضوا عن ذلك. وربما كان التسلسل المنطقي لتوارد الأفكار يقتضي أن تقابل دعوتهم هذه بنسبة الولد له -سبحانه- بالتهديد والوعيد والعذاب والخزي في الدنيا والآخرة. والعدول عن كل هذه المعاني جاء ليتساق مع الجو العام الذي ملأ كل أركان هذه السورة المباركة؛ وهو جو الرحمة. هذا فضلاً عن إضفاء جو نفسي يفيض بالأمل والرحمة والتسامح يحيط بالنبى (صلى الله عليه واله وسلم) ليكون ذلك حافزاً ومطمعاً على مقابلة الإعراض بالإقبال، والجفاء بالصلة، حتى ليكون الغرض من إرساله (ص) إلى الأمة أن يكون هو نفسه رحمة أيضاً. قال تعالى: ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ))^(١٠٧).

٣. ((يا أبت)):

تكرر هذا التركيب (حرف النداء (يا) + المنادى (أبت)) أربع مرات في سورة مريم^(١٠٨)، وكانت جميعها على لسان نبي الله إبراهيم عليه السلام في دعوته أباه (آزر) لما جاءه من الحق. ويشكل هذا العدد نصف الاستعمال القرآني لهذا التركيب عموماً. فقد استعمل في

نجد سورة قرآنية أخرى تحظى حتى بنصف هذا العدد المستعمل في سورة مريم؛ إذ نجد سورة (الزخرف) تأتي بالمرتبة الثانية حيث تكرر فيها الاسم الكريم سبع مرات فقط. فضلاً عن أن سورة (الرحمن) التي تحمل هذا الاسم عنواناً لها لم تستعمله سوى مرة واحدة فقط. ومن هنا تأتي أهمية البحث عن أسرار هذا الإلحاح القرآني في استعمال هذا الاسم في سورة مريم، وكل هذا يؤشر إلى سعة الرحمة التي تفيض بها أجواء هذه السورة المباركة؛ فأنت لا تتعدى موضعاً من مواضعها إلا ووجدت الحق سبحانه يستعمل اسمه الكريم هذا إشارة منه إلى رحمانيته الواسعة التي تشمل الأولين والآخرين، وزاد على ذلك إن بعض اشتقاقات هذا الاسم كانت مستعملة أيضاً؛ فقد استعملت كلمة (رحمة) في موضعين من السورة^(٩٨)، وكلمة (رحمتنا) في موضعين أيضاً.^(٩٩)

والسورة بعد ذلك تبدأ بالحديث عن الرحمة. قال تعالى: ((ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا))^(١٠٠) وتنتهي بالحديث عن الرحمة أيضاً، قال تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا))^(١٠١)، وبين هذين الموضوعين أجواء من الحديث عن الرحمة التي في الدنيا، والتي ستكون في الآخرة، ورحمة يرجوها حتى من عصى الله سبحانه وكان بعيداً عنه، ألا ترى أن الخليل عليه السلام يحذر أباه بقوله: ((يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ))^(١٠٢)، ومن كان موغلاً في الضلالة فد(الرحمن) لا يزال يمد له ويمهله، قال تعالى: ((قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا))^(١٠٣)، وتتسع الرحمة الإلهية لتطمع الجميع بها براً وفاجراً، ملكاً وبشراً، فالكل سيفد على "الرحمن"، قال تعالى: ((إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا))^(١٠٤)، فما من مخلوق في السماوات والأرض إلا ويأوي إليه سبحانه ويلتجئ إلى ربوبيته عبداً منقاداً مطيعاً خاشعاً راجياً.

هذا فضلاً عن رحمة وسعت زكريا فأفاضت عليه بيحيى، ورحمة عمت مريم وإبراهيم، وموسى، وإدريس -عليهم السلام. ولعلنا نجد في معنى اسمه "الرحمن" متسعاً لجميع هذه المعاني وغيرها؛ فأنت لا تجد لغوياً أو مفسراً للقرآن إلا وهو يحدثك عن أن (الرحمن) إنما هو للمبالغة

النفسية لا يتنافى مع القول بوجود دلالات أخرى تبوح بها الألفاظ، والنصوص اللغوية، بل يمكن عدّها جانباً مكملاً من جوانب الكشف عن المعنى، والنتيجة الثالثة الهامة: إن القرآن الكريم بوصفه نصاً لغوياً -قبل كل شيء- يخاطب النفوس والعواطف الإنسانية ويتعامل معها كما يتعامل مع العقل ويخاطبه ويمكن البحث عن دلالات نفسية وعاطفية في آياته المباركة، وسوره العظيمة، وقد كشف البحث عن دلالات نفسية كثيرة كانت تفوح بها سورة مريم المكيّة، دلالات لا تفارق ألفاظ هذه السورة وما قيل فيها، بل تنطلق من جميع ذلك موظفة السياق لغوياً كان أم اجتماعياً أم عاطفياً للوصول إليها دون الجزم بأن هذه المعاني أو تلك هي المعاني الوحيدة التي يمكن اعتمادها في فهم كلامه سبحانه وتعالى، بل هي معانٍ يمكن إضافتها إلى كل ما قيل وما سيقال عن كلام الله الذي لا تنقضي عجائبه.

هوامش البحث:

- (١) مقدمتان في علوم القرآن: ١٨٠-١٨١.
- (٢) ينظر: المدخل إلى علم اللغة، رمضان عيد التواب: ١٣٧-١٤٠.
- (٣) ينظر: مفهوم المرجعية وإشكالية التأويل: ٣٥.
- (٤) ينظر: علم الدلالة: جون لاينز: ٧٦.
- (٥) ينظر: ظلال المعنى بين الدراسات التراثية وعلم اللغة الحديث: ٧١.
- (٦) الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم: ٧.
- (٧) اللغة: فندريس: ١٩٦ وينظر: دور الكلمة في اللغة: ٩٢، واللغة والمعنى والسياق: ٢١٦.
- (٨) ينظر: دور الكلمة في اللغة: ٩٢.
- (٩) ينظر: منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث: ١٨٣.
- (١٠) ينظر: دور الكلمة في اللغة: ٩٦.
- (١١) المصدر السابق: ٩٢.
- (١٢) ينظر: المجال الدلالي بين كتب الألفاظ والنظرية اللغوية الحديثة: ٧٥.
- (١٣) الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم: ١٣.
- (١٤) ينظر: المصدر السابق: ٢٣.

أربعة مواضع أخرى اثنان منها في سورة يوسف^(١٠٩)، وآخر في القصص^(١١٠)، ورابع في الصافات^(١١١).

وبالعودة إلى سورة مريم نجد الخليل (عليه السلام) إنما أراد استمالة قلب أبيه إليه أولاً، والهيمنة عليه عاطفياً قبل البدء بدعوته إلى طريق الهداية والحق. وقد ذكرنا في موضع سابق من البحث إنه قد ترفق في دعوة أبيه واتبع معه أسلوباً شيقاً متسلسلاً، وكان يصدر كلامه في كل مرة بقوله (يا أبت) مع أن المخاطب -على وفق ما يرى فريق من المفسرين- ليس أباه في الواقع، وهنا تبزغ الحاجة إلى استمالاته عاطفياً، وتذكيره بصلة القرابة والرحم التي بينهما، التي حاول إبراهيم توظيفها، والضغط بها على المدعو قبل عرض أفكاره عليه. يقول الزمخشري: ((حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصا فيه أمر العقلاء وانسلخ عن قضية التمييز... رتب الكلام معه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق مع استعمال المجاملة واللفظ والرفق واللين والأدب الجميل، والخلق الحسن... وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله: (يا أبت) توسلاً إليه واستعطافاً))^(١١٢). وفي ذلك كله دليل على الحب، والرغبة في صونه من العذاب وإرشاده إلى الصواب، ولذلك لم يورد كلامه على سبيل العنف؛ لأن ذلك يصير سبباً في إعراضه عنه، ودافعاً لسلوك طريق المكابرة والعناد، وبكل ذلك نلاحظ أن إبراهيم قد خلق جواً نفسياً وعاطفياً مناسباً كان يمكنه من خلاله طرح أفكاره، ومبادئ دعوته بالرغم من نفور الآخرين منها وابتعادهم عنها.

نتائج البحث:

يطمنن البحث في نهايته إلى جملة نتائج؛ أولها: إن الدلالة النفسية فرع من فروع علم الدلالة لا يمكن تجاهله أو تجاوزه عند البحث عن دلالة الألفاظ مفردة أو مركبة في أي نص لغوي، فمع كل ما قيل عن الدلالة المركزية التي تحيط بالألفاظ، إلا إن النظر إلى الأجواء العاطفية والنفسية التي ترافق استعمال هذه الألفاظ يمكن أن يكشف لنا جانباً مهماً من جوانب المعنى يختبئ خلف الألفاظ، ولا تجليه لنا طرق البحث الأخرى عن المعنى. وثانيها: إن القول بالدلالة

- (٤٧) مريم: ٨.
- (٤٨) ينظر: الكشاف: ٣: ٥-٦، والتفسير الكبير: ٢١: ١٦٠، وأضواء البيان: ٤: ١٦٥، وروح المعاني: ٨: ٣٨٥-٣٨٦، والميزان في تفسير القرآن: ٣: ٢٠٥-٢٠٦.
- (٤٩) البقرة: ٢٦٠.
- (٥٠) الميزان في تفسير القرآن: ٤: ١٦.
- (٥١) ينظر: الكشاف: ٣: ٥-٦، وروح المعاني: ٨: ٣٨٦.
- (٥٢) الحجر: ٥٤.
- (٥٣) الأعراف: ١٤٣.
- (٥٤) ينظر: التفسير الكبير: ٢١: ١٦٠، وروح المعاني: ٨: ١٨٦.
- (٥٥) الأنبياء: ٩٠.
- (٥٦) آل عمران: ٣٧-٣٨.
- (٥٧) الميزان في تفسير القرآن: ٣: ٢٠٥.
- (٥٨) التفسير الكبير: ٢١: ١٦٠.
- (٥٩) مريم: ١٨.
- (٦٠) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٦: ٣٢٦، والتفسير الكبير: ٢١: ١٦٨-١٦٩.
- (٦١) ينظر في ذلك مثلاً: التفسير الكبير: ٢١: ١٦٩، والنكت والعيون: ٣: ٣٦٣، وروح المعاني: ٨: ٤٠.
- (٦٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٤: ٤٠.
- (٦٣) المصدر السابق والصفحة.
- (٦٤) المائة: ٢٣.
- (٦٥) المائة: ٥٧.
- (٦٦) مريم: ٢٤-٢٦.
- (٦٧) مريم: ٢٣.
- (٦٨) الكشاف: ٣: ١٣.
- (٦٩) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٦: ٣٣٢.
- (٧٠) ينظر: التفسير الكبير: ٢١: ١٧٦.
- (٧١) ينظر: روح المعاني: ٨: ٤٠٤.
- (٧٢) آل عمران: ٤٥-٤٦.
- (٧٣) لطائف الإشارات: ٤: ٩٧.
- (٧٤) مريم: ٤٣.
- (٧٥) ينظر في ذلك: الكشاف: ٣: ١٨، وروح المعاني: ٨: ٤١٥.
- (٧٦) مريم: ٤٢.
- (٧٧) مريم: ٤٣.
- (٧٨) مريم: ٤٤.
- (٧٩) مريم: ٤٥.
- (٨٠) مفردات ألفاظ القرآن: ٣٠٣.

- (١٥) ينظر: دور الكلمة في اللغة: ٥٨، وعلم الدلالة، د. احمد مختار عمر: ٧٠.
- (١٦) مفهوم المرجعية وإشكالية التأويل: ٣٩.
- (١٧) الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم: ٢٦.
- (١٨) ينظر: مباحث في علوم القرآن: ٢٠٩ وما بعدها.
- (١٩) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٤: ٦.
- (٢٠) مريم: ٩٧.
- (٢١) مريم: ٢.
- (٢٢) مريم: ٩٦.
- (٢٣) مريم: ١٦.
- (٢٤) مريم: ٤٩.
- (٢٥) مريم: ٩٦.
- (٢٦) ينظر: في معنى الآية: الكشاف: ٣: ٤٥، وروح المعاني: ٨: ٤٥٧-٤٥٨.
- (٢٧) مريم: ٢.
- (٢٨) ينظر: الكشاف: ٣: ٣١.
- (٢٩) مريم: ٦٨.
- (٣٠) يراجع في ذلك سورة مريم: ٧١، ٧٦.
- (٣١) مريم: ٣.
- (٣٢) ينظر: في ذلك: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٦: ٣١٨، والكشاف: ٣: ٣، والتفسير الكبير: ٢١: ١٥٣، والنكت والعيون: ٣: ٣٥٤.
- (٣٣) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٤: ٧، وروح المعاني: ٨: ٣٨٠-٣٨١، وأضواء البيان: ٤: ١٥٦.
- (٣٤) روح المعاني: ٨: ٣٧٩-٣٨٠ وينظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٤: ٧.
- (٣٥) ينظر: روح المعاني: ٨: ٣٧٩.
- (٣٦) لطائف الإشارات: ٤: ٩١.
- (٣٧) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٤: ٧.
- (٣٨) ينظر: الكشاف: ٣: ٣٠، والنكت والعيون: ٣: ٣٥٤.
- (٣٩) مريم: ٤-٥.
- (٤٠) ينظر: التفسير الكبير: ٢١: ١٥٥، والميزان في تفسير القرآن: ٤: ٧.
- (٤١) الميزان في تفسير القرآن: ١٤: ٩.
- (٤٢) روح المعاني: ٨: ٣٨٢.
- (٤٣) ينظر: الكشاف: ٣: ٤، والتفسير الكبير: ٢١: ١١٥.
- (٤٤) التفسير الكبير: ٢١: ١١٥.
- (٤٥) الميزان في تفسير القرآن: ١٤: ٨.
- (٤٦) مريم: ٧.

- آياته وأحاديثه الشيخ محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٣. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ -)، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار، المكتبة العربية، لبنان - بيروت.
٤. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري الرازي الشافعي (ت ٦٠٤هـ -)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٥. الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم: محمد جعفر محيسن، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القادسية، ٢٠٠٢م.
٦. دور الكلمة في اللغة: ستيفن أولمان، ترجمه وقدم له وعلق حواشيه د. كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، المنيرة، ١٩٧٥م.
٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، (ت ١٢٧٠هـ -)، ضبطه وصححه علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٨. سورة مريم، دراسة لغوية: أنوار عزيز جليل الأسدي، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية - جامعة البصرة، ٢٠٠٥م.
٩. ظلال المعنى بين الدراسات التراثية وعلم اللغة الحديث: د. علي زوين، بحث منشور في مجلة آفاق عربية، أيار، ١٩٩٠، السنة الخامسة عشرة.
١٠. علم الدلالة: د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط ٥، ١٩٩٨م.
١١. علم الدلالة: جون لاينز، ترجمة: عبد الحليم الماشطة، وحليم حسين فالح، وكاظم حسين باقر، منشورات كلية الآداب - جامعة البصرة، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٠م.
١٢. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم جار الله محمد بن عمر بن محمد الزمخشري (ت ٥٣٨هـ -)، رتبه وضبطه وصححه:

- (٨١) ينظر: الكشف: ٣: ١٩، وروح المعاني: ٨: ٤١٥.
- (٨٢) روح المعاني: ٨: ٤١٥.
- (٨٣) مريم: ٤٦.
- (٨٤) تراجع سورة مريم: ٢، ٩، ١٩، ٢١، ٢٤، ٦٤ في موضعين، ٦٨، ٧١، ٧٦.
- (٨٥) تراجع سورة مريم: ٤ في موضعين، ٦، ٨، ١٠.
- (٨٦) تراجع سورة مريم: ٣٦، ٤٧، ٤٨ في موضعين.
- (٨٧) تراجع سورة مريم: ٢، ٥٥.
- (٨٨) تراجع سورة مريم: ٣٦.
- (٨٩) تراجع سورة مريم: ٦٥.
- (٩٠) ينظر: لسان العرب: مادة ريب: ١: ٣٦٩-٣٧٠، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ٣: ٢٩-٣٠.
- (٩١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ١: ٢٥-٢٧.
- (٩٢) المصدر السابق: ٤: ١٩١.
- (٩٣) مريم: ٢.
- (٩٤) مريم: ١٩.
- (٩٥) مريم: ٦٨.
- (٩٦) الكشف: ٣: ٣١.
- (٩٧) تراجع سورة مريم: ١٨، ٢٦، ٤٤، ٤٥، ٥٨، ٦١، ٦٩، ٧٥، ٧٨، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٦.
- (٩٨) تراجع سورة مريم: ٢، ٢١.
- (٩٩) تراجع سورة مريم: ٥٠، ٥٣.
- (١٠٠) مريم: ٢.
- (١٠١) مريم: ٩٦.
- (١٠٢) مريم: ٤٥.
- (١٠٣) مريم: ٧٥.
- (١٠٤) مريم: ٩٣.
- (١٠٥) مريم: ٨٨.
- (١٠٦) مريم: ٩١.
- (١٠٧) الأنبياء: ١٠٧.
- (١٠٨) هي الآيات: ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥.
- (١٠٩) يوسف: ٤، ١٠٠.
- (١١٠) القصص: ٢٦.
- (١١١) الصافات: ١٠٢.
- (١١٢) الكشف: ٣/ ١٨-١٩.

مصادر البحث:

١. القرآن الكريم.
٢. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ -)، خرج

في دار الكتب ببرلين، ودار الكتب المصرية، د. آثر جفري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م. ٢٤. منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، د. علي زوين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٦م. ٢٥. مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري، مطبعة الديوان، بغداد، ط١٢، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م. ٢٦. الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، منشورات مؤسسة الاعلمي، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م. ٢٧. النكت والعيون، تفسير الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (ت ٤٥٠هـ)، راجعه وعلق عليه السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

The psychological Implications of the "Mariam" sura.

The present paper is an attempt to investigate the psychological implications in one of the Quranic Suras (Mariam asura) which represent an important aspect of the overall context of this sura. Close scrutiny of the Quranic text requires going beyond the literal (lexical) meaning of words to uncover their psychological connotations without which meaning remains incomplete. The study approaches the "Mariam sura" from three angles:

- 1- Considering it as one of the suras which were descended on the prophet in Mecca.
- 2- Considering the narrative (story) which embodies the skeleton of the sura.
- 3- Considering the psychological implication of repetitions in the sura.

Exploring such psychological implication helps to reveal the endless subtleties and mysteries of the Quranic text in order to reach of a better understanding of its meaning.

محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م. ١٣. لسان العرب: ابن منظور الأفرقي (ت ٧١١هـ) حققه: عامر أحمد حيدر، راجعه عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٣م. ١٤. لطائف الإشارات، عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت ٤٦٥هـ)، قدم له وحققه وعلق عليه: د. إبراهيم البسيوني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة. ١٥. اللغة، فندريس، تعريب: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٥٠م. ١٦. اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ترجمة: د. عباس صادق الوهاب، مراجعة: د. يوثيل عزيز يوسف، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٧م. ١٧. مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط١٨، ١٩٩٠م. ١٨. المجال الدلالي بين كتب ألفاظ والنظرية اللغوية الحديثة، د. علي زوين بحث منشور في مجلة آفاق عربية، السنة السابعة عشرة، العدد الأول، كانون الثاني، ١٩٩٢م. ١٩. مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي، وضع حواشيه وخرج آياته وشواهد: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م. ٢٠. المدخل إلى علم اللغة الحديث ومناهج البحث اللغوي، د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤٠٥هـ-١٩٥٥م. ٢١. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (ت ٤٢٥هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط٤، ١٤٢٥هـ. ٢٢. مفهوم المرجعية وإشكالية التأويل في تحليل الخطاب الأدبي، د. محمد خرماش، بحث منشور في مجلة الموقف الثقافي، العدد التاسع، سنة ١٩٩٧، تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد. ٢٣. مقدمتان في علوم القرآن، وهما مقدمة كتاب المباني، ومقدمة ابن عطية، نشرهما من المخطوطات المحفوظة